الملفان الخالد

أمضى المماللكَ والملوكَ مدى الخوالي أمضى بقطعِ الهامِ من أمضى النصالِ

لا فرقَ عندَ القتلِ يُعرَفُ عندَهُ بين المُحرَّمِ في الشَّرائعِ والحلالِ

حرقاً وإغراقاً وخنقاً فاتكٌ بالعالمينَ مِنَ النِّساءِ أو الرِّجالِ

يدعو الغنيَّ إليهِ يذهبُ صاغراً وبدونِ مالٍ أو ثيابٍ أو نعالِ

من دون صوتٍ أو حراكٍ باطشٌ بالأسدِ والأطفالِ والصيدِ الغوالي

كالغولِ يغتالُ الرِّجالَ وما انتضى منْ صارمٍ أو ساحَ في ساحِ القتالِ

تسبي الوحيدَ يداهُ من حضنِ التي تفدي الوحيدَ بروحِها وبكلِّ غالِ

يبكي منَ العجزِ الرجالُ حيالَهُ كبكا صغارٍ رُضَّعٍ عندَ الفصالِ

أودى الرجالَ مدى الزمانِ وما ارتوى واليومَ يودي بالأشمِّ من الجبال

ما كانَ أبروهومُ نورو في المدى جبلاً ولكنْ في الإرادةِ والفِعال

السنُّ أنحلَهُ وقوَّسَ ظهرَهُ حتّى أطلَّ القوسُ إطلالَ الهلال

لينوِّرَ الأجيالَ باللغة الَّتي نطقَ المسيحُ بها فنوَّرتِ الليالي

كالشمعدانِ أنارَ أطباقَ الدُّجى وعلى المذابح ذابَ في نورِ الجلال

كالشمعدانِ ضياهُ ذوَّبَ شمعَهُ حتّى تماهى النورُ في نورِ الأعالي

الموتُ نازلَهُ ونازلَ موتَهُ بتبسُّم البطلِ المُظفَّرِ في النزالِ

الداءُ شاغلهُ فواصلَ شغلَهُ حدباً على لغةِ المسيحِ بلا كِلالِ

جلداً وعظماً صارَ آخرَ عمرِهِ والروحُ جَلْدٌ والإرادةُ كالنبالِ

دبَّ الهُزالُ بجسمِهِ والموتُ قد بقيَ الهزيلَ أمامَهُ رغمَ الهُزالِ

وكموتِ قدّيسينَ كانَ مماتُهُ فرحاً بلقيا اللهِ في دنيا الجمال

في وصفِ أبروهومَ نورو كلّما قالَ البيانُ أبانَ إعياءَ المقالِ

إنْ قالَ كانَ مسالماً وموادعاً أبدتْ عزيمتُه أساطينَ النضالِ

أو قالَ طفلاً ظلَّ رُغمَ مشيبِهِ فكتابُ سيرتِهِ أساطيرُ الخيالِ

أو قالَ أشبهَ في التواضعِ وادياً بدتِ الجبالُ إزاءَهُ بعضَ التلالِ

لم يشهدِ التاريخُ طلعةَ عاشقٍ معشوقُهُ لغةٌ سواهُ مدى الخوالي

إنْ غرَّدتْ لغة المسيحِ لسَمْعِهِ سكرتْ بمبسمِهِ عناقيدُ الدوالي

خدمَ اللسانَ بعمرِهِ وبمالِهِ والبذلُ كلُّ البذلِ مِنْ عمرٍ ومالِ

أمضى الحياةَ مُعلِّماً مُتعلّماً لغةَ الطهارةِ والقداسةِ والكمالِ

وأحالَ مكتبةً جوانبَ بيتِهِ لتكونَ جامعةً لطلابِ المعالي

قد كرَّسَ الملفانُ فسحةَ عمرِهِ ليقولَ للسريانِ خاتمةَ المقالِ

في فقدِها أعمارُكم وعمارُكم شِبهُ النقوشِ أوِ الرُّتوشِ على الرِّمالِ

المرُّ يحلو في سبيلِ بقائها ويخفُّ عندَ لقائها عبءُ الثِّقالِ

هي مجدُكم ووجودُكم وخلودُكم وهي الطريقُ إلى المعزَّةِ والكمال

هي صوتُ آرامٍ وبابلَ والرُّها وبها علتْ آشورُ مِنْ عالٍ لعالِ

هي مقدسٌ للطالبينَ رضا السَّما وصلاةُ قدّيسينَ في صمتِ القَلالي

أمُّ الحروفِ حروفُها وقِطافُها إبداعُ أفرامٍ وكوكبةِ المعالي

وبها أحيقارُ الحكيمُ حبا الورى حِكَماً تُنافسُ في نفاستِها اللآلي

وبها ملائكةُ السَّماءِ ترنَّمتْ في ليلةِ الميلادِ مِنْ مجدِ الأعالي

ماءُ الخلاصِ مِنَ السَّماءِ بها جرى وترقرقَ الإنجيلُ كالماءِ الزُّلالِ

لغةٌ بها نطقَ المسيحُ وأمُّهُ يعنو الزَّوالُ لها ويذهبُ للزَّوالِ

طافَ البريّةَ في المدائنِ والقرى شرقاً وغرباً في الجنوبِ وفي الشِّمال

في العزم كالأسدِ الهصورِ فؤادُهُ ولياقةً ورشاقةً صنوُ الغزال

مُتفقِّداً أبناءَ أمَّتِهِ كما يتفقَّدُ الأبُ بيتَهُ في كلِّ حال

في كلِّ سانحةٍ تُجمّعُ شعبَهُ كأبٍ معَ الأبناءِ أو عمٍّ وخالِ

في ملتقى السريانِ يرقصْ قلبُهُ رقصَ البلابلِ والسنابلِ والغلالِ

للهِ دَرُّكَ أيُّها الملفانُ يا حلوَ الشَّمائلِ والفضائلِ والخِصالِ

حلبٌ وأبروهومُ نورو والرُّها سحرُ العراقةِ والمحبَّةِ والجمالِ

اللحدُ يسألُ عنكَ مهدَكَ في الرُّها والشهبُ تسألُ عنكَ في حلبَ الأهالي

عن لطفِ ظلِّكَ تسألُ الشَّمسُ الدُّنى عنْ نورِ وجهِكَ يسألُ القمرُ الليالي

فكأنَّ وجهَكَ كانَ أجملَ كوكبٍ وكأنَّ ظلَّكَ لم يكنْ مثلَ الظِّلالِ

لا غَرْوَ أنْ تشتاقَ لقياكَ السَّما ويسيلَ دمعُ الأرضِ في توديعِ غالِ

في الأرضِ أبهجْتَ السَّماءَ بجولةٍ ولكَ السَّماءُ اليومَ أرحبُ للمجالِ

الموتُ في الدُّنيا سؤالٌ مُعضِلٌ ومَعادُ أجوبةِ السؤالِ إلى السُّؤالِ

الفلسفاتُ أمامَهُ ورجالُها هيَ عطسةٌ للموتِ أو بعضُ السعالِ

إنْ يُعْدَمِ الحيُّ الرَّجاءَ فعمرُهُ كسُرى الجِمالِ مِنَ الرِّمالِ إلى الرِّمالِ

الموتُ أغلى بالحياةِ فأصبحتْ مِنْ غيرِ تقوى اللهِ أرخصَ مِنْ ريالِ

الموتُ يسرقُ بعضَهم مِنْ بعضِهم ليجيءَ دورُ السَّالمينَ على التوالي

الموتُ يسرقُ كلَّ حينٍ غالياً مِنْ أهلِهُ والأهلُ في عجزِ السَّحالي

فيولولونَ مِنَ النَّكالِ وإنَّهم ليُزغردونَ ويرقصونَ مِنَ الخَبالِ

طلبُ الخلاصِ مِنَ المنيَّةِ مِنْ يدِ الإنسانِ شأوَ الدَّهرِ مِنْ طلبِ المُحالِ

لم يغلبِ الموتَ الرَّهيبَ سوى الَّذي في هامِ جلجلةٍ تكلَّلَ بالجلالِ

والمؤمنونَ به الألى أعطاهم الملكوتَ كالملفانِ مفخرةِ الرَّجالِ